بسم الله الرحمن الرحيم
جمهورية العراق
جامعة الانبار
مركز الدراسات الإستراتيجية

آليـــات الخطاب ومفرداته بين الإتباع والابتكار
ـخطابات أسامة بن لادن أنموذجاـ

ا.م.د.نصرة احميد الزبيدي

أيلول/2013

المدخل

ما بين تاريخ ١٥/ ٢/ ١٩٥٧ سنة ولادته و٣/ ٥/ ٢٠١٢ سنة مقتله في عملية أمريكية على مقره السري في باكستان تاريخ حافل من الأحداث الشخصية والفكرية والسياسية التي أثرت على شخصية أسامة بن لادن وفكره،وقد انعكس ذلك جليا على خطاباته التي تتناولها هذه الدراسة في جزء منها ,يمتد ما بين احتلال أفغانستان وأحداث سبتمبر2001 واحتلال العراق2003 ,لأنها شكلت الركيزة الأساسية فيها،ووفقا للوثائقيات التي كتبت عنه تعد سنة ١٩٨٢ الأهم لكونها سجلت ارتباطه بالجماعات الجهادية**(1)**,غير أن أهم خطاباته برزت بشكل واضح بعد حرب الخليج الأولى ١٩٩١ ومشاركة العرب في ائتلاف قادته أمريكا لإخراج العراق من الكويت.

وفي هذه الخطابات برزت السمات المتنوعة للخطاب الديني ذي النزعة الجهادية المحرضة على القتال ،من هنا جاء اختيار هذه العينة منها أرضية للدراسة التي تأخذ طابعا نقديا أدبيا يقوم على دراسة عناصر الخطاب ومرجعياته وروابطه باعتبارها نصوصا أدبية عبرت عن فكر منتجها .

ولابد أولا من تقرير حقيقة النزعة التقليدية التي طغت على الخطابات في أسلوبها وآليات بناء المعنى فيها ،ما ضيق سبيل تطبيق آليات بناء الخطاب الحديثة عليها بشكل كبير ،كما برزت سلطة المتلقي الواضحة والتي جعلت الدراسة مرتبطة بهذا الجانب ،وهي تقع في ثلاثة محاور رئيسة هي:

أولا- بنية الخطاب ومفرداته

ثانيا- مرجعيات الخطاب وروافده

ثالثا- إشكاليات التلقي

أولا- بنية الخطاب ومفردات

يمثل الخطاب احد المصطلحات التي شاعت في الدراسات النقدية واللغوية ولقي إقبالا منقطع النظير من قبل الدارسين ،مع انه لم يكن حديثاً ،إذ حفلت المباحث البلاغية واللغوية العربية القديمة بمعالجات متنوعة للخطاب بمفهومه المرتبط عند العرب بالكلام والمقصد والمخاطب،ونتيجة للدراسات الغربية والإنجازات الكبيرة في ميادين الدرس اللغوي الغربي الذي بدأ يرتسم بعد ظهور كتاب (محاضرات في اللسانيات العامة) لفرديناند دي سوسير لما أسس له من مبادئ رسخت مفهوم الخطاب .

وفي زحمة التعريفات الكثيرة التي يعتمد كل منها على مرجعية خاصة سنعتمد منها ما يناسب اتجاه دراستنا التي تعتمد على تتبع مفردات الخطاب والتركيز على المتلقي بوصفه شريكا في إنتاج النص ،ومن هذا المنطلق يقابلنا تعريف (E.Benvenniste) له ،إذ يعرفه بأنه كل لفظ يفترض متحدثا أو مستمعا تكون للطرف الأول فيه نية التأثير في الطرف الثاني بشكل من الأشكال، ويميز بين نظامين للتلفظ هما الخطاب والحكاية التاريخية وتنشأ من اتساع الخطاب في مفهومه لكونه وحدة لسانية مفرغة تتعالق مع الثقافة والمجتمع ،كما أنه يختلف عن الحكاية التاريخية في مستويين اثنين هما الزمن وصيغ الضمائر ،ولا يقصد بها تلك التي تنقل حدثا تاريخيا بل حدثا ينقل بطريقة يصبح فيها هدفه تاريخية الحدث في حد ذاته**(2)** ,ولا بد من الإشارة إلى عدم كفاية حصر مفهوم الخطاب بالأطر اللغوية والدلالية مما لا يكفي لإضافة عناصر التأثير مما تنطوي عليه وظيفة اللغة واعتبارات التلقي المتنوعة ولا حتى التشكيلات البنائية ذات الأبعاد الجمالية والغايات الإنتاجية للمعنى،فنحن بحاجة للانطلاق في هذه الدراسة من الفضاء الذي يمثل أرضيتها وهي الخطابات وهي خطابات أسامة بن لادن لكي لا تتحول الدراسة إلى مجرد قراءة توصيفية تتجاوز خصوصية هذا النوع من الخطابات،وهو أمر تمليه حقيقة إقرار الباحثين بتعدد المعايير الخطاب وأنواعه ،فهي ليست مقصورة على معيار معين طالما أن لكل مجتمع وكل ثقافة مجموعة من أنماط الخطاب التي يمكن تحديدها .(3)

وقد سبقت النظرة العربية إلى هذا المفهوم عند أكثر من عالم ومنهم الجاحظ(ت255ه) الذي أسس له في مقولته المشهورة (لكل مقام مقال) **(4)**, وعالج التفرعات المرتبطة بالأسلوب وأحوال التلقي من غير أن يسميها بمسمياتها الحاضرة.

وفي موضوع بلاغة الخطاب المرتبطة بعلم النص لابد من الإشارة إلى نقطة مهمة تتلخص بالحذر من خطورة الانجرار وراء النظرة التي تبحث في القديم عن مظاهر التوافق مع الحديث كما يفعل بعض التوفيقيين من الباحثين **(5)**, والحديث عن هذه النقطة ضروري هنا بسبب طبيعة الخطابات التي نحن بصدد دراستها والتي تمتاز كما قدمنا بنزعة كلاسيكية قصدية ترتكز على أسس الخطاب الديني والأدبي العربي القديم بدرجة تكاد تكون متطابقة لولا المضامين,وذلك بسبب التركيز على عناصر الخطاب المادية التي تمثل اللغة والتشكيل ومستويات البناء الإسنادية والتحديدية والتركيبية أي الاستعارة والوصف والترابط ،أي سياقات النظم **(6)**،وقد سبب هذا التركيز على الجوانب اللغوية على حساب غيرها إشكالية في التوصيل لا بسبب نوعية المتلقين ولغتهم وحسب وهي التي أهملتها الخطابات بشكل كبير، بل بسبب المرجعيات الثقافية للخطابات نفسها،وهي إسلامية عربية خالصة تجاوزت عنصر أثر العامل الزمني في تغير الخطاب بسبب

تغير طبيعة الحياة نفسها,ولا يعني ذلك بالضرورة قصورها لأن العوامل الفكرية كانت العنصر الأساس في بنائها.

وبالنسبة لمصطلح البنية الذي نستخدمه هنا فهي التي تمثل التنظيم الداخلي للوحدات وطبيعة علاقاتها وتفاعلاتها وهي مفهوم ذو طابع تجريدي أكثر علمية وأشد قابلية للالتقاط على مستويات عديدة ،وبما أن الخطابات التي بين أيدينا لا ترقى في تشكيل بنائها الداخلية والخارجية إلى مستوى الخطابات ذات السمة الأدبية الحديثة الطابع بمفاهيمها المعروفة فسنضطر إلى استخدام هذا المصطلح بحذر ،ذلك لأن سياقات الخطاب وأطره تميل إلى البلاغة التقليدية في البناء ،وفي هذا الصدد لابد من الإشارة إلى أن عيب البلاغة التقليدية (التي تندرج الخطابات تحت مسماها في خصائصها) وهو المتمثل بعدم تجاوز الوحدات الجزئية في طرائقها في بناء الصور قد انتهى بها إلى عدم القدرة على تحليل الدلالة الفعلية لهذه الوحدات،**(7)** وهي تنطبق بهذا التوصيف على الخطابات ،وبتعبير آخر فان بنية الخطاب فيها تقوم على مفاهيم مادية حسية للعناصر التي يتألف منها ،وربما كان لعناصر الثقافة الدينية وطبيعة العوامل المحركة للفكر وما يندرج تحتها من حيثيات الصراع والموقف الأيديولوجي سببا في وسمها بتلك السمة،وهو ما يعيدنا إلى مقولات البلاغة العربية القديمة التي تراهن على ركني اللفظ والمعنى وتضيف إليها العناصر التحسينية ثم الوظائف التركيبية للاستعارة والمجاز بوجه عام ,ودورها في تحقيق استثمار امثل للغة في توسيع المعجم الفني أمام المنشئ.

وإذا عدنا إلى البلاغة العربية بمدرستيها الأدبية والكلامية وجدنا أن تلك الخطابات تمثل مزيجا منهما بدرجة متفاوتة،فأخذت من المدرسة الأدبية الابتعاد عن اقتباسات المنطق والفلسفة العامة والكلاميات الخاصة، إذ لم يمتلك منطق الإقناع والحجاج الذي انطوت عليه الخطابات الأطر الفلسفية الواضحة،كما أكثرت من الشواهد القرآنية والأدبية بصيغ التضمين والاقتباس والتأكيد على القيمة(ونعني بها الأخلاقية هنا) من حيث أثرها في التعبير ودورها الجمالي والدلالي وتلك أسس المدرسة الأدبية **(8)**, فيما أخذت من المدرسة الكلامية الاعتماد على الجدل والمناقشة والتحديد اللفظي واستعمال المقاييس الحكمية الفلسفية المعتمدة على قواعد منطقية**(9)** ولو بدرجة اقل تحديدا في الخطابات التي ستتضح معالم الخطاب فيها من خلال الدراسة النصية لعينات مختارة منها.

ثانيا- مرجعيات الخطاب وروافده

يمثل المتلقي احد أهم أركان عملية تشكيل الخطاب ،لاسيما الخطابات التي تعتمد السمة الإقناعية التي تروج لفلسفة ما،وبالنسبة لخطابات أسامة بن لادن فقد اختلطت السمة الإقناعية

بالتبرير لأنه كان مدركا لنوعية المتلقين وتفاوت مواقفهم وانتماءاتهم (إذا ما أخذنا بنظر الاعتبار كون أكثر الخطابات جاءت اثر عمليات عسكرية على الأرض أو حرضت على إتباع منهج القوة) إلى جانب ما تمليه طبيعة الخطابات الموجهة إلى الغربيين ,حيث يخضع هذا النوع من المتلقين إلى ثقافة ممنهجة تمثل أساسيات سياسة دولته في احتواء الرأي العام وخطاب المواطن،وسنكتشف افتراق خطاباته الموجه للشعوب الإسلامية و(المجاهدين) في سمتها عن تلك الموجهة لغيرهم،وهذه الخطابات في أسلوبها وطبيعتها جاءت أكثرها بصور رسائل وتمزج بين الخطب والرسائل في طبيعتها العامة لأنها مكتوبة بأسلوب الرسائل وفنية الخطب ،كما أن أكثرها مسجلة بصوته وتستوفى معايير الإلقاء الذي يهدف إلى زيادة التأثير من خلال التنويعات الصوتية كالنبر والإدغام والتخفيف والتشديد وتنوع الإيقاعات التي تتحكم فيها عوامل الإبداع والتلقي والغايات مجتمعة.

والنص الخطابي هو نص موظف في علاقاته بجمهوره،من هنا تكثر فيه الضوابط والحتميات التي يفرضها هذا التوظيف**(10)**,وهناك معايير تحكم طريقة التلقي ينبغي مراعاتها لإحداث التأثير المطلوب في خطابات البعد الأيديولوجي ،في مقدمتها المعيار النفسي الذي يعد أهم معايير عملية التلقي ،وهو من ضرورات النص الخطابي ،لأن وظيفته تقوم على الأخذ بنفوس المخاطبين ،ولا يتعلق الأمر هنا بما سمي عند القدماء اليونانيين والعرب بمراعاة مقتضى الحال وأقدار السامعين كما هو عند أفلاطون وأرسطو الذي ربطه أيضاً بالجمهور من المستمعين **(11)**,ومن ثم عند الجاحظ في مباحثه في البيان والتبيين وما نقله عن سهل بن هارون والذي يعد نتيجة طبيعية للتمازج بين الثقافات وتعدد مصادر الفكر لان عصرهم كان عصر ملتقى الثقافات المتعددة الآي أفادوا منها وطوروها فكانت غرة العطاء الفكري الشامل**(12)** ،ومن معايير التلقي الأخرى المعيار العقلي أيضاً ،ذلك أن طبيعة النثر بشكل عام اعتماده على لغة العقل التفكير ، ولا يد في الفن الخطابي من تحقيق عنصري الإقناع واستمالة المتلقي**(13)** ،كما لابد من تحقيق عنصر التوصيل الذي يعتمد أساسا على الإفهام الذي كان معيارا لبلاغة الخطيب ،لأن مهمته وفق منظور الجاحظ تدور في إطار الإفهام الذي يعد معيارا لنجاح التوصيل(ومدار الأمر إلى إفهام كل قوم بمقدار طاقتهم،والحمل عليهم على أقدار منازلهم وان تؤاتيه آلته ،وتنصرف معه أداته)**(14)**.

ولا يمكن فهم طريقة مراعاة هذه المعايير واعتبارها ما لم يتم تقسيمها على وفق الفهم العميق للخطابات التي بين أيدينا ومعرفة المرجعيات التي قامت عليها وسنختار المرجعيات الرئيسة الثلاث الأكثر تأثيرا وهي:

ا- المرجعية الدينية

تتجسد قيمة هذه المرجعية من حيث تأثيرها في إنتاج الخطاب من حقيقة الصراع الذي أفرزه،وهو صراع أيديولوجي ديني بالدرجة الأساس،وعليه تقوم أسس المرجعيات الباقية أي السياسية والأدبية،ومع أن المرجعية الأدبية هي مدار البحث الأساس إلا أننا لا يمكن أن نفهم أسس تشكيلها وتحلل أنساقها تحليلا نصيا منفصلا عن أسبابه ومرجعياته المتعلقة بالأفكار والمضامين،وبالنسبة لخطابات بن لادن فان المرجعية الدينية فيها تنوعت بين القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة وأقوال الصحابة (رضي الله عنهم) وغيرهم, وقد ظهرت بمستويين مباشر وغير مباشر ,يعتمد النص المقتبس والنص المضمن على الترتيب،لا على سبيل التزيين النصي بل لتعضيد الحجج والآراء التي يطرحها ،ففي محاضرته المعنونة (النفير) ورد الاقتباس في احد عشر موضعا بآيات تحرض على القتال وتجادل في مصداقية قتال المشركين ومن نقضوا عهد الله مما جاء في القرآن الكريم،وقد بدأت الرسالة كأغلب الخطابات بنص قرآني وانتهت بمثله ،وصيغة الاقتباس في طريقة توظيفها عكست التفكير المسبق لمكانها في النص تماشيا مع الوحدات المعنوية للفقرات،وهي باختيارها العفوي شكلا المقصود معنى انعكست على بنية الخطاب عموما،فلم تكن استشهادات عابرة مقحمة بل مثلت مستوى تاليا في أكثر المواضع بعد مستوى النص المنتج كقوله :(فالسبيل لكف بأس الكفار هو الجهاد في سبيل الله،كما قال تعالى : ((فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ ۖ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا)) النساء (84)**(15)**, وقوله:(كما أن الأمة موعودة بالنصر ,ولكن إذا تأخر النصر فذلك بسبب ذنوبنا وقعودنا عن نصرة الله،قال تعالى:((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ)) (محمد ٧)**(16)** ,ثم يلحق بحديث نبوي بالمعنى نفسه, تليه أقوال للسلف وعلماء الإسلام ومنهم احمد بن حنبل وغيره،ويحافظ على هذه التراتبية في النصوص في جميع خطاباته ،وهو بذلك لم يخرج عن أساليب الأدباء القدماء في توظيف النص القرآني والنبوي بالأطر ذاتها ،وتبرز مسالة أخرى في هذا الجانب وهي تطابق المفاهيم والاختيار الواعي للنص المضمن وهو أمر يفرضه السياق،ومن مطابقة العنوانات التي يختارها للخطابات تبرز هذه النقطة بصورة أكثر جلاء،فمضمون النص السابق هو التحريض على القتال وعنوانها(النفير) وهو يمثل نقطة للانطلاق وإنتاج المعنى ،مع المحافظة على بنية الإقناع في تشكيل الوحدات ما يقتضي اختيارا واعيا للمفردات والسياقات ، والسمة الإقناعية عموما كانت السمة المهيمنة على مجمل الخطابات الموجهة للمسلمين والمقاتلين من أتباعه وتتوافر بخصوصية ثقافية في خطاباته الموجهة لغيرهم .

ومن النماذج الأخرى ما نجده في خطاب آخر معنون ب(خطاب الشيخ بعد ثلاثة أشهر من غزوتي نيويورك وواشنطن وبعد شهر من قصف كابل) يقول:(وما عرفت البشرية أحدا يقتل

الأطفال إلا نادرا وهو مذهب فرعون وان الله سبحانه وتعالى من على بني إسرائيل إذ نجاهم من آل فرعون((وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ)) (البقرة ٤٩) **(17)**, وفي جميع النماذج التي تندرج تحت هذا التوجه اعتمد نسق الإقناع ومبررات العمليات التي يقوم بها على الأرض ووظف النص القرآني بطريقة تخدم الهدف الأساسي .

ويلاحظ انه يعمد إلى دمج أسلوبي الاقتباس والتضمين بشكل غير مقصود لان التقديم لعرض الآيات القرآنية اعتمد التضمين (وهو الذي يقوم على المعنى مع بعض المفردات المستخدمة من النص المضمن الأصلي) ثم يليه النص المقتبس ،وهي صيغة بنائية مهيمنة في جميع المواضع التي وردت فيها سواء ما تعلق بالنصوص القرآنية أم نصوص الحديث الشريف وغيرها،في حين عمد إلى عدم الاستعانة بالنصوص الدينية عموما في الخطابات الموجهة إلى غير المسلمين ، أو اعتمد طريقته المألوفة في التقديم والأختام بالنصوص القرآنية المناسبة للموضوعات التي تتضمنها الخطابات،فقدم مثلا لخطاب(رسالة إلى الشعوب الأوربية) بقوله تعالى((قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ))(الأنفال 38), وهي إلى جانب العنوان تلخص موضوع الرسالة ،كما إن الآية الكريمة الآي اختارها بعد نهاية الرسالة وهي قوله تعالى((وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ))(الأنفال 61) لخصت منهجه في التعامل مع الآخر(غير السلطوي) في محاولة لإظهار حسن النية ولفت انتباه الرأي العام.

وقد طغت سمة العمومية في الخطابات الموجهة إلى جهة بعينها, إلى جانب الاستخدام المعتدل للنصوص القرآنية الكريمة من حيث الكم ،وهي سمة تكاد تنطبق على جميع الخطابات ،وهو يخضع في هذا الاختيار لسلطة المتلقي بشكل كلي فيعيد بناء صورة القارئ الذي يتخيله في ذهنه من خلال إعادة بناء صور الجمهور الذي رغب بمخاطبته**(18)**, من هنا نميل إلى تأكيد التصاق المرجعية الدينية بتوجيه الخطاب نحو مخاطب مفترض مهما كانت سلطة المرجعية الدينية وتأثيرها على المتكلم فتصبح وظيفتها ثانوية،كما نعلم أن أهمية وجهة الخطاب تحدد أسلوبه وأدواته مثلما أنها تكشف عن قارئ متخف خلف النصوص يكون هو المؤلف نفسه في أحيان أخرى .

ب- المرجعية الأدبية

تتجسد ملامح هذه المرجعية في اتجاهين أساسيين يتمثلان بالوظيفة الأدبية والوظيفة التاريخية وذلك في سياقات التضمين والاقتباس نفسها التي قامت ليها مجمل الخطابات ,وما نعنيه

بالأدبية هنا النصوص الشعرية التي استخدمت بشكل لافت لاسيما الأشعار ذات النزعة الإسلامية والأخلاقية التي تتجاوب مع فكرة الجهاد,وموضوعاتها نبذ الدنيا والترغيب في الشهادة مما يمثل عودة إلى الأطر التقليدية التي ميزت الخطاب الادبي الإسلامي إبان عصر صدر الإسلام والفتوحات التي امتدت غربا وشرقا وأفرزت نسقا شعريا معينا**(19)**,في حين تكون الوظيفة التاريخية جزءا من الوظيفة الأدبية وتستقل عنها في التشكيل,ذلك لأننا أمام بنيتين شعرية ونثرية اعتمادا على نسق التشكيل لا على العناصر واختيار مصطلح التاريخية جاء بسبب توافر عناصر السرد والمكان والزمان .

وبالنسبة للوظيفة الأدبية فقد سجلت الخطابات حضورا للنصوص الشعرية المقتبسة وكانت في مجملها لشعراء إسلاميين معاصرين وقدماء وآخرين غير إسلاميين ,ويتبع في إدخالها إلى نسق الخطاب الطريقة نفسها التي اتبعها مع النصوص الدينية وذلك بان يجعلها في مواضع الاستشهاد للحجة والدليل مما ألفناه عند القدماء,,من نماذجه التي أكثر الاستشهاد بها أشعار الدكتور يوسف أبو هلالة احد ابرز شعراء الدعوة المعاصرين ومنه قوله: **(20)**

وللنصر أسباب وللخسر مثلها وكل طريق يورث الخلد رابح

دروب العلا شتى واقصرها التي تريق الدما في جانبيها الجحاجح

ونميز ثلاثة طرق لتقديم النصوص الشعرية لهذا الشاعر تحديدا الأولى قوله(وكما قال أبو هلالة)كما في الأبيات السابقة, والثانية(وأخيرا إليكم أبيات شاعر الدعوة أبي هلالة)كما في خطاب (إلى إخواننا في باكستان) والثالثة لا يذكر اسمه بل يقحم الأبيات من غير إشارات إلى صاحبها,والهدف إشراك المتلقي والتقرب منه لتحقيق الغاية الاقناعية للخطاب.

والطرق الثلاثة مثلت سياقات تقليدية في التضمين تتواجد جميعها في بنى الخطب العربية القديمة,مع تمييز التلقي المحدد في الطريقة الثانية وهو أمر مقصود لتخصيص مخاطب بعينه,وقد تميزت المرجعية الأدبية بالتنوع من خلال الاختيار لنماذج متفاوتة زمنيا مع التصرف بالأبيات في بعض الكلمات ما يدل على كون الأشعار لا تكون غاية بقدر كونها وسيلة ,على نحو استبدال مفردات من قصيدة احمد شوقي نكبة دمشق واستخدام غزة وكل ذلك من غير إشارة إلى الشاعر لاعتبارات تعلق بكونها جزءا من الخزين الثقافي للمتلقي العربي ,وهنا يرتبط الخطاب بفكر المتلقي الذي يكون جزءا من سلطة التناص المعرفي الموجه للخطاب باعتبار دوافعه الكامنة وراءه,يقول: (21)

فغزة مات فتيتها لتحيا ومدح الكفر للأحرار حرق

وحررت الشعوب على قناها فكيف على قناعا تسترق

ومن روافد المرجعية الأدبية الأشعار القديمة, وهو ما يعزز حقيقة الموقف الأدبي من الفن بغض النظر عن سمته الإسلامية أو غيره,والدليل على ذلك الاستشهاد بأبيات المشركين وهي نقطة غريبة ومنها الاستشهاد بابيات أبي جهل في يوم بدر وهي:(22)

ما تنقم الحرب العوان مني

بازل عامين حديث سني

لمثل هذا ولدتني امي

وهي في سياقها الخطابي ضمن رسالة (بيان للشعب الأمريكي) وتستثمر وجهة الخطاب لغاية بيان الموقف الجمعي والفردي,وينتقل فيها ن صيغ(نحن,أنا) إلى تغليب(الأنا) الجمعي في الخطاب لاعتبارين الأول: إن متلقي الخطاب هم الأمريكيون,الثاني: إن الذهن ينساق إلى مقاربات لموقف الكلي أي الحرب والاندفاع وهنا تظهر سلطة الخطاب الأدبي المجردة بغض النظر عن التأثير الأيديولوجي الذي يطغى على الخطابات عموما.

أما في خطاب(السبيل لإحباط المؤامرات) فانه يكتفي بما وراء النص من مقاصد لتحقيق غاية تناسب السياق الأصلي الذي وردت ضمنه من خلال الاستشهاد ببيت لأبي العتاهية في مخاطبة الرشيد بقوله:(23)

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها إن السفينة لا تجري على اليبس

فهو ينقل وجهة الخطاب إلى المسلمين من العرب الذين ناصروا أمريكا في حربها على العراق,وكذلك الأمر في توظيف بيت طرفة بن العبد في خطاب(رسالة خطوات عملية لتحرير فلسطين):(24)

وطعن ذوي القربى اشد مضاضة على المرء من وقع الحسام المهند

ومن مجمل اختياراته المقصودة للنصوص الشعرية التي شكلت أساس المرجعية الأدبية نلاحظ اختفاء الغاية الأدبية في موضوع اقتباس النص لأن الاقتباسات لم تكن مقصودة لصفتها الأدبية, بل لتخدم غايات الخطاب الأصلي فصفتها تزيينية وهو أمر تابع فيه القدماء العرب في تعاطيهم مع موضوع الشاهد الشعري,وهو يعتمد الذاكرة الجمعية في اختياراته لأن الأشعار جزء من موروث جمعي معروف.

ومما يدخل في سياق المرجعية الأدبية الوجهة التاريخية لتحقق عناصر الواقعية السردية الزمانية والمكانية والحدثية ,ومن جهة أخرى فان العودة إلى آراء ياوس وهو احد الباحثين واللغويين الألمان تكشف الدعوة إلى التوحد بين الأدب والتاريخ, لأن التعامل مع النص إنما يتم من خلال معيارين هما الإدراك الجمالي لدى المتلقي ومعيار الخبرات السابقة التي يتم استدعاؤها في لحظات التلقي,لأن الخبرات الجمالية لدى المتلقين تمثل دليلا مساندا ومغنيا في سلسلة الاستقبالات

من جيل إلى جيل(25),وهو تماما ما ينطبق على المتلقي الذي يفترضه المتكلم في حالة الخطابات التي بين أيدينا,واستثمار الخبرات التاريخية يوازي في قيمته استثمار اللغة بتشكيلاتها التقليدية لإنتاج نص مؤثر,ليصبح النص معيارا للخبرة هذا من جهة ,ومن جهة أخرى فان هناك مستوى آخر من(التاريخية) يتعلق بالنقل الدلالي للمفردات من خلال استدعاء دلالاتها التاريخية كما وردت,مع أن هناك من الباحثين من يرى في هذا التقيد بتلك الدلالات ظاهرة سلبية ويضرب الأمثلة الكثيرة على استخدام اللغة القديمة يمثل طردا للغة الحية المعبرة عن الواقع بصورة عامة في مجمل الخطاب الديني(26),وهو السبب ذاته الذي جعل لغة الخطابات مكشوفة متوقعة لأنها انطلقت من مبدأ مطابقة الوقائع الحاضرة مع الماضية,ولا نكاد نجد حالة يتحدث عنها إلا ولها نظير مستدعى من التاريخ الإسلامي,على شاكلة الوقائع التي تروى هنا هناك , ومنها واقعة (بيعة العقبة) يقول:(لذا فان العباس بن عبد المطلب وقد كان على دين قومه أراد أن يطمئن على ابن أخيه محمد (صلى الله عليه وسلم)ثم بعد أن أنهى العباس كلامه قال البراء بن معرور من الأنصار قد سمعنا ما قد قلت وان والله...النص)(27),إن استخدام الدلالات ماضية في نصوص مقحمة في بنية الخطاب عززت السمة السردية فيها وكانت سببا في فقدان الكثير من المتلقين لسبل التواصل الفعال معها لان المسافة الزمانية الفاصلة بين الأحداث شكلت عقبة للتواصل في وقت تغير فيه المتلقي وأصبح يحتاج إلى ما هو أكثر من العودة إلى الماضي لفهم الحاضر المليء بالمتغيرات,ومن ثم فان المرجعية الأدبية دارت في حلقة التراث نفسها التي يدور فيها المنشئ,ما يدعو للافتراض بأن هناك طبقة مخصوصة من المتلقين يقصدها المتكلم جعل الخطاب يتسم بالارتجاعية في مضامينه الثقافية والفكرية,كل ذلك بأسلوب تقليدي يعكس من جانب آخر ثقافة الكاتب وملامحها.

المرجعية السياسية

تتمثل هذه المرجعية في الفكر السياسي الذي ينتقل زمنيا بين الماضي والحاضر,وامتزجت مع المرجعيات الباقية بشكل آلي,وفي الوقت الذي كانت فيه المرجعيات السابقة بنيات مساعدة في هيكلية الخطاب كانت هذه المرجعية بنية رئيسة مهيمنة,وهي التي أفرزت ثغرات بنائية مقصودة احتاج لملئها بالنصوص الدينية والأدبية , ولابد أولا من ملاحظة أن وجهات لخطاب كانت متنوعة حتمت ضرورة تنويع بنيات الخطاب وأساليبه,وكانت مضامين هذا النمط من المرجعيات تقوم على موضوعات جوهرية في فكر الكاتب منها الجهاد في أفغانستان والاحتلال الأمريكي للعراق والاحتلال الإسرائيلي لفلسطين,والتي مثلت ثلاث بؤر موضوعية تقع في ثلاث بؤر زمنية ترابط تراتبيا في خطاباته, تقع الأولى قبل أحداث سبتمبر 2001 والثانية بعدها ولغاية احتلال العراق 2003 والثالثة ما بين 2003-2009 ,وتغيرت لغة الخطاب ووجهته تبعا لذلك التنوع الموضوعي,وكان المضمون السياسي حاضرا في جميع الخطابات بلا استثناء,يسير

متلازما مع المرجعيات السابقة, وفي هذا النمط من المرجعيات تداخل العنصر الزمني في الخطاب القائم على تقاليد الخطب العربية القديمة ,وكان لطبيعة الثقافة الدينية العربية للمبدع أثرها الواضح في إيثار هذا الأسلوب وأظهرت الخطابات في مجملها سمة الجدل السياسي إلى جانب الجدل العقلي المشفوع بالأدلة والبراهين النصية (آيات قرآنية وأحاديث نبوية وأشعار وأمثلة تاريخية) وسعت إلى أن تكون مرجعية سياسية يستنير بها أتباع الفكر الجهادي ,لاسيما وأنها تعالج قضايا السياسة الساخنة التي تهم العالم اجمع والمسلمين على وجه الخصوص.

ففي خطاب(إلى إخواننا في باكستان)يعالج موضوعات العلاقات السياسية الأمريكية الأفغانية وقضية الصراع في باكستان ما بين حقبة بوش واوباما وتمتزج بالقضية الفلسطينية وحصار غزة ,واثَّر هذا التداخل على بنيات الخطاب في إحداث ثغرات واضحة أخلّت بالعنصر الزمني الذي يمثل احد روابط رصف الخطاب,لاسيما في الخطابات ذات السمة السردية ,ويتكرر هذا التنوع في أكثر من خطاب ومنها خطاب ما بعد أحداث سبتمبر 2001 ورسالة إلى الشعوب الأوربية في 25/ 9/ 2009 والتي يعالج فيها موضوع أفغانستان والتدخل الأمريكي في جورجيا,ويمتد فيها إلى معالجة التبعات الاقتصادية للحرب, ,وفي هذا القسم من جميع الخطابات -أي القسم المتعلق بالسياسة- تغيب المحسنات البديعية والأمثلة والشواهد التاريخية والدينية والأدبية والنبرة الخطابية التي نجدها تطغى في خطاباته الحماسية التحريضية,وهو أمر يعكس دور وجهة الخطاب في بناء النص في التشكيل والسياق وهي التي أكدنا مرجعيتها العربية عند الجاحظ وغيره,وهي التي يبدو أن بن لادن قد تأثر بها بحكم تكوينه الثقافي الذي كان مزيجا من الثقافة الدينية والتراثية,غير أن وطأة الخضوع للتراث تقل هنا بشكل كبير,ليخلق نوعا من التوازن الزمني المطلوب للتواصل مع العالم ولعدم وجود قرائن ماضية مشابهة,ما جعل هذا النوع من الخطابات الأسهل والأقرب إلى ذهنية المتلقي المعاصر.

ثالثا- إشكاليات التلقي

يرتبط التلقي بوصفه خطوة تالية للقراءة بالتأويل,باعتبار الرؤى التي تدمج القارئ عنصرا شريكا منتجا لنص الأدبي إلى جانب العناصر الأخرى ,واحتل هذا الأمر مكانة متميزة في موضوع تحليل بنية النص ,وهذا التأويل يضع قضايا التأويل والتلقي في إطار أكثر سعة لصيرورة التواصل لأن التأويل والتواصل يكونان عناصر صيرورة أكثر اتساعا(28), وانطلاقا من حقيقة كون القارئ أو الجمهور مجرد عنصر سلبي يتوقف دوره على المتعة والتفاعل مع النص بل يتعداه الى تنمية تساهم في صنع التاريخ فلا يستطيع العمل الأدبي أن يحيا من غير علاقات بالمتلقين والإسهام الفعلي للذين يوجه إليهم,ومساهمتهم الفعالة التي أبعادا واضاءات جديدة وذلك انطلاقا من نظرة ياوس إلى ضرورة فتح الحلقة المغلقة التي تشكل جمالية الإنتاج

والتصوير لتنفتح على جمالية التلقي والأثر المنتج لإدراك كيفية الانتظام لتتابع الأعمال ضمن تاريخ أدبي متماسك.(29)

وفي هذا النوع من الخطابات ذات المرجعيات المتنوعة التي تتقيد بأهداف محددة ذات طبيعة اقناعية فان العنصر الجمالي والأدبي ليس غاية بحد ذاته بل مجرد وسيلة,فلا تنطبق عليها المعايير الجمالية إلا بقدر حاجتها إلى تحقيق عنصر الإقناع,من هنا تقيدت بمبدأ البساطة والوضوح في اللغة والتركيب وتشكيل وحدات المعنى,وما بين عناصر التلقي الثلاث(المنشئ-النص-القارئ) بدت هيمنة القارئ واضحة في توجيه مسارات النص, ولأن جمهور النص العربي منذ أقدم العصور ولحد الآن يعتمد على لغة النص ودلالاتها الموحية (30), فان اختيار المنشئ للغة وطبيعتها تحدد في ضوء تلك الحقيقة,إلى جانب أن السمة التقليدية للخطابات كانت كذلك في كل شيء متعلق بالجوانب المادية للخطاب (اللغة والتراكيب والتشكيل) وعلى عادة العرب القدماء انصب الاهتمام بالأحوال النفسية للمتلقين ومنازل المخاطبين وأقدارهم الاجتماعية على شاكلة ما معروف في النص الخطابي(31) ,وما يعزز ذلك أن النص الخطابي عموما نص موظف في علاقته بالجمهور ,من هنا تكثر الضوابط والحتميات التي يفرضها هذا التوظيف وفقا للمعايير العقلية والنفسية والاجتماعية(32),وتتجسد قيمة القارئ في هذه الخطابات تتجسد فيما يعرف بالقارئ الضمني الذي يعده ايزر أهم الأسس الإجرائية لوصف العلاقة التفاعلية بين النص والقارئ الذي لا يوجد وفق هذه النظرية خارج النص بل تترسخ جذوره في داخله(33),وهو الأمر المؤكد في الخطابات لأن المتلقي كان الهدف الأبرز الذي يستهدفه المنشئ بحكم طبيعة النص وظروف إنشائه.

ولابد من الإشارة إلى وود نوعين من الإشكاليات المتعلقة بوجهة الخطاب في هذا النوع من الخطابات وهي:

1- إشكاليات تتعلق بالمتلقي المحلي (العربي الإسلامي).
2- إشكاليات تعلق بالمتلقي الخارجي(الأجنبي).

وهو ما افرز نوعين من مسارات الخطاب ,وبالنسبة للوجهة الأولى من الخطابات للمتلقين المحليين كانت الإشكالية تتعلق بمتلق (متردد) فكثرت فيها الاستشهادات من نصوص دينية وأدبية التي تعالج موضوعات مماثلة ,وهذا التردد تمليه حقيقتان الأولى تعلق بنوعية الظروف المحيطة بإنتاج الخطابات,والثانية تعلق بسمات النصوص الخطابية القديمة التي تحاكيها الخطابات والتي تقوم على لاستشهادات المتنوعة لتعزيز وجهة النظر,وهي كثيرة في نسبتها ,من هنا يفسر الاتساع الكمي لوحدات المعنى والتركيب المترتب على ذلك حيث اتسعت الخطابات لتغطي مجمل القضايا التي تهم المسلمين في العصر الحديث وامتزجت بروابطها التراثية بشكل

واضح,ما حول هذه الروابط إلى نوع من المفاتيح التي تسد الفجوات التي يخلقها التردد عند المتلقي.

وبرأينا أن الإشكاليات الأهم في الخطابات تكمن في النوع الثاني من الخطابات الموجهة إلى متلقين غير محليين باعتبار كونها جاءت زمنيا بعد مواقف صدامية تتمثل بالعمليات الهجومية كأحداث سبتمبر مثلا والتي شغلت حيزا كبيرا من الاهتمام العالمي,وخطاباتها لم تكن ذات طابع إقناعي قطعا بل تحولت إلى سمة التبرير لاستخدام مبدأ القوة ,مع وجود إشكاليات أيديولوجية فرضت على المنشئ نمطا من الخطاب الذي يوصف بكونه حطابا مؤسساتيا, نظرا لكون هذا النوع من المتلقين خاضع لسلطات خطابية أقوى تتمثل في آلة الإعلام الضخمة التي تحرص على تشكيل الرأي العام وفق خطوط السياسة الخاصة بالدولة,وهو أمر أخذه بن لادن في الاعتبار كما يبدو إلى جانب كون خطاباته تمثل نزعة فردية الطابع تسعى للتقنع بالمواقف العامة للأمة التي يوحي بأنه يتبنى مواقفها,من هنا فقد كانت نسبة حطاباته للغربيين قليلة مقارنة بتلك الموجهة للعرب والمسلمين وانحسر تنوعها الموضوعي بشكل كبير ومالت إلى لإيجاز والتقنين الشديد,وتبرز في هذا الجانب سلطة المتلقي التي تتخذ مسارا مختلفا عما ألفناه في خطابات النوع الأول,وفي نهاية المطاف تبرز إشكالية تتعلق بوجود ثغرات أيديولوجية (داخلية وخارجية) فرضت سلطتها على بنيات الخطاب ,وعموما فالخطابات جميعها كانت سهلة الأسلوب وواضحة المقاصد ولا لبس فيها ولا غموض ولا تعقيد في البناء إلا أنها مثلت نكوصا للخطاب الأدبي العربي وارتجاعا مقصودا قيميا وفنيا نحو القديم مع محاولة الارتباط بالزمن الآني من خلال معالجة القضايا المعاصرة ,وهي تجمع بين سمات الخطب العربية القديمة شكلا والخطب الدعوية الجهادية الحديثة مضمونا بالنظر إلى السمات الفكرية والأدبية التي تميزها بوصفها نصوصا أدبية تدور في اطر الفن الخطابي وتعد مرحلة من مراحل تطور الخطاب العربي الذي شابته الكثير من الظواهر بسبب طبيعة تعامل الآخر مع العوامل التي شكلته في العصر الحديث,وهو خطاب يحاول تخطي سلبيات الخطاب الانهزامي السياسي ويوجد المبررات لسلوك طريق (العنف) بوصفه تبريرا لفكرة الدفاع عن النفس,وهي في مجملها تمثل خطابا سياسيا ذي خلفية دينية يقوم على أسس استلهام التراث بشتى روافده واستثماره بالشكل الأمثل الذي يوصل وجهة النظر التي يحملها.

الهوامش

1- انه ابن لادن/٤٦١.
2- تحليل الخطاب الميني روائي في الجزائر /14,نقلا عن إنشائية الخطاب في الرواية العربية الحديثة /١.
3- بلاغة الخطاب وعلم النص /٨٤.
4- البيان والتبيين141/1.
5- بلاغة الخطاب وعلم النص/ ٥١.

6- نفسه/ ٥٢.
7- نفسه/ ١٢٢.
8- مدخل إلى البلاغة العربية/ ٢٤.
9- نفسه/ ٣٥.
10- قراءة النص وجماليات التلقي/ ١٢٠.
11- نفسه/ ١٢١.
12- نفسه/ ١٢٦.
13- نفسه/ ١٣١.
14- البيان والتبيين ١/ ١٠٦.
15- ينظر خطاب النفير /٢.
16- نفسه/ ٣.
17- وينظر رسالة خطوات عملية لتحرير فلسطين /٢, النزال النزال /١، بيان للشعب الأمريكي /٤,رسالة من الشيخ الأسد أسامة بن لادن إلى الشعب الأمريكي,وينظر محاضرة قديمة في بلاد الحرمين بعنوان حال الجهاد,وخطاب إلى الشعب الأمريكي –السبيل لانهاء الحرب.
18- إشكالية التلقي في أعمال كاتب ياسين/١٣ نقلا عن فعل القراءة/٢٧.
19- شعر الفتح الإسلامي لبلاد الشام في عهد الخليفتين أبي بكر وعمر (رضي الله عنهما)/137.
20- النفير/4, شاعر أردني من شعراء الدعوة وأستاذ الدعوة الإسلامية في جامعة اليرموك من مواليد معان بالأردن,وينظر خطاب السبيل لإحباط المؤامرات,وكذلك خطاب(رثاء شهيد الأمة وأمير الاستشهاديين أبي مصعب الزرقاوي).
21- رسالة خطوات عملية لتحرير فلسطين/1. والأبيات في احمد شوقي الأعمال الشعرية الكاملة/74,وكذلك رسالة إلى أهلنا بالعراق,وينظر خطاب السبيل لخلاص فلسطين.
22- زهر الاكم في الأمثال والحكم107/2.
23- الديوان/230.
24- ينظر خطوات عملية لتحرير فلسطين,والبيت في ديوان طرفة /36,وفيه(وظلم بدلا عن وطعن).وينظر خطاب حقيقة الصراع,وخطاب(إلى الأمة عامة ومجاهدي العراق خاصة).
25- قراءة النص وجماليات التلقي/28.
26- نقد الخطاب الديني/214.
27- خطاب النفير/ 8.
28- التلقي والتأويل-هورس ستينميتز-ترجمة منذر عياشي-مجلة نزوى الالكترونية العدد 49 19-7 -2009.
29- إشكالية التلقي في أعمال كاتب ياسين/146.
30- قراءة النص وجماليات التلقي/85.
31- نفسه/93.
32- نفسه/120.
33- إشكالية التلقي في أعمال كاتب ياسين/10.

المصادر

* القرآن الكريم
1- احمد شوقي(الأعمال الشعرية الكاملة)- دار العودة- بيروت-1988 .
2- إشكالية التلقي في أعمال كاتب ياسين-كريمة بلخماسة-أطروحة دكتوراه-كلية الآداب واللغات جامعة مولود معمري تيزي وزو-الجزائر.
3- إنشائية الخطاب في الرواية العربية الحديثة –محمد الباردي- مركز النشر الجامعي- تونس- ٢٠٠٤.
4- انه بن لادن(كل شيء عنه بلسان زوجنه وابنته)- جين ساسون-شركة المطبوعات العربية للتوزيع والنشر-ط2- بيروت-2011.
5- بلاغة الخطاب وعلم النص-د.صلاح فضل-المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب-سلسلة عالم المعرفة(164)- الكويت-1992.
6- البيان والتبيين-الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر(ت255هـ)-تحقيق:عبد السلام هارون-مكتبة الخانجي-ط7- القاهرة-1998.
7- تحليل الخطاب الميني روائي في الجزائر- رواية اوشام بربرية لجميلة زنير أنموذجا-مذكرة ماجستير كلية اللغات والآداب-جامعة منتوري-الجزائر.
8- التلقي والتأويل-هورس ستينميتز-ترجمة منذر عياشي-مجلة نزوى الالكترونية العدد 49 19-7 -2009.

9- ديوان أبي العتاهية- طبعة دار بيروت-1986.
10- شعر الفتح الإسلامي لبلاد الشام في عهد الخليفتين أبي بكر وعمر (رضي الله عنهما)جمع ودراسة-ابتسام مصطفى صايمة-رسالة ماجستير –كلية الآداب -الجامعة الإسلامية-غزة-2009.
11- زهر الاكم في الأمثال والحكم- الحسن اليوسي- تحقيق د.محمد حجي ود.محمد الأخضر- دار الثقافة-ط1- الدار البيضاء-1981.
12- فعل القراءة نظرية جمالية التجاوب-فولفانغ أبسر-ترجمة :حميد لحداني-مكتبة المناهل-الدار البيضاء-1995.
13- قراءة النص وجماليات التلقي بين المذاهب الغربية الحديثة وتراثنا النقدي-د.محمود عباس عبد الواحد-دار الفكر العربي-ط1- مصر-1996.
14- مدخل إلى البلاغة العربية-د.يوسف أبو العدوس-دار المسيرة-ط1- عمان-2007.

الخطابات:

خطابات أسامة بن لادن من إصدار مؤسسة السحاب للإنتاج الإعلامي.